

تفسير سورة القيامة

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿ أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴾ ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ﴿ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ﴿ إِذَا بَرَأَ النَّبْرُ ﴾ ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ ﴿ كَلَّا لَا وَوَدَّ ﴾ ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَقِرُ ﴾ ﴿ يُبْعَثُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَلْفَى مَعَادِيرَهُ ﴾ ﴿

ربع

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان متنياً ، جار الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الاجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضى قُدماً ما يعاتب نفسه . وقال جُوَيْرٍر : بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال سعيد بن جبير : تلوم على الخير والشر . وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة . وقال قتادة : ﴿ اللوامة ﴾ : الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴾ أي : يوم القيامة ، أيعظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال ابن عباس : أن نجعله خفياً أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتدة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجهه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا . والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ حال من قوله : ﴿ نَجْمَعُ ﴾ أي : أيعظن الإنسان أنا لا نجتمع عظامه ؟ بل سنجمعها قادين على أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ، أي : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أريد مما كان ، فنجعل بنانه - وهي أطراف أصابعه - مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعني يمضى قدماً . وقال : يعني : الأمل ،

يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقال مجاهد : ﴿ لِيَجْزَأَ أَمَانَةُ ﴾ : يمضى أمامه راجبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدَمَا قُدَمَا ، إلا من عصمه الله . ورؤى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعَجَلُ الذنوبَ وَيُسَوِّفُ التوبة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد ، وهذا هو الاظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَتَىٰ نَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبا: ٢٩، ٣٠] .

وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ، قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرِقَ ﴾ بكسر الراء ، أى : حار . وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء ؛ من شدة الرعب . وقرأ آخرون : ﴿ بَرَقَ ﴾ بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الاول . والمقصود : أن الابصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الاهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الامور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كُورًا . وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١] . ورؤى عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿ وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴾ . وقوله : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُوعُ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الاهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة . وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ١٧] : أى : ليس لكم مكان تنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يَبْنِئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمَ وَآخَرَ ﴾ أى : يخبر بجميع اعماله قديمها وحديثها ، اولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَنْظُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وانكر ، كما قال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الاسراء: ١٤] . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول : سمعه وبصره ويده ورجلاه وجوارحه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت - والله - رأيت بصيرا يعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الإنجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تبصر القذاة فى عين أخيك ، وتترك الجذع فى عينك لا تبصره . وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ باطل لا يقبل منه . وقال السدى : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ : لو القى ثيابه . والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَسْتَحْبَبْهُمْ إِلَّا قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الانعام: ٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَحْتَسِبُ اللَّهُ

جَمِيعًا فَيُحِطِفُونَ لَهُ كَمَا يَحِطِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ [للجادة: ١٨].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِيعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿وَجُودُهُ بِؤْمُورِهِمْ نَاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ﴾ ﴿وَجُودُهُ بِؤْمُورِهِمْ نَاضِرَةٌ﴾ ﴿تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَارِعَةٌ﴾ ﴿

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يسره لادائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ، ولهذا قال : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ﴾ أي : بالقرآن ، كما قال : ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم قال : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي : في صدرك ، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي : ان تقراه ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ، ﴿فَانْبِيعْ قُرْآنَهُ﴾ أي : فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي : بعد حفظه وتلاوته يبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفثيه . قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفثي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفثيه . وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفثي كما رأيت ابن عباس يحرك شفثيه - فانزل الله عز وجل : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ، قال : جمعه في صدرك ، ثم تقراه ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِيعْ قُرْآنَهُ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه . وقد رواه البخاري ومسلم ، ولفظ البخاري : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (١) . وهكذا قال الشعبي ، والحسن البصري ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت في ذلك . وقد روى ابن جرير من طريق العوفي ، عن ابن عباس : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ﴾ قال : كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ : أن نقرئك فلا تنسى . وقال ابن عباس وعطية العوفي : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ : تبين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة .

وقوله : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿وَجُودُهُ بِؤْمُورِهِمْ نَاضِرَةٌ﴾ من النضارة ، أي حسنة بهيئة مشرقة مسرورة ، ﴿إِلَىٰ رَيْبِهَا نَاطِرَةٌ﴾ أي : تراه عيانا ، كما رواه البخاري ، في صحيحه : ﴿إِنَّكُمْ سَتَرُونَ بِكُمْ عَيَانًا﴾ (٢) . وقد

(١) المسند (٣١٩١) والبخاري (٤٩٢٧ - ٤٩٢٨) ومسلم (١٤٧/٤٤٨) .

(٢) البخاري (٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣) .

ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة - وما في الصحيحين : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تُصَارُونَ في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك » (١) . وفي الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَوْنَ ربكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تُغلبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٢) . وفي الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّانٌ من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رِداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٣) . وفي أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، وهي الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : « الَّذِينَ أَحْسَبُوا النَّسْتَى زِينَةً » [يونس : ٢٦] (٤) . وفي أفراد مسلم ، عن جابر في حديثه : « إن الله يَتَجَلَّى للمؤمنين يضحك » (٥) - يعني في عرصات القيامة ، ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات ، وفي روضات الجنات . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها والفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير ، وبالله التوفيق . وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُدَاة الأنام .

وقوله : « وَوَجْهٌ يُؤْتَدِ بِاسِرَةٍ . نَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة . قال قتادة : كالحية . وقال السدي : تغير ألوانها . وقال ابن زيد : « باسرة » أي : عابسة . « نَظُنُّ » أي : نستيقن ، « أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » قال مجاهد : داهية . وقال قتادة : شر . وقال السدي : تستيقن أنها هالكة . وقال ابن زيد : نظن أن ستدخل النار . وهذا المقام كقوله : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » [آل عمران : ١٠٦] ، وكقوله : « وَجُوهٌ يُؤْتَدِ بِسُفْرَةٍ . صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يُؤْتَدِ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ . تَرْتَهِفُهَا قِرَّةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ » [عيس : ٣٨ - ٤٢] ، وكقوله : « وَوُجُوهٌ يُؤْتَدِ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » ، إلى قوله : « وَوُجُوهٌ يُؤْتَدِ نَاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » [الغاشية : ٢ - ١٠] ، في أشباه ذلك من الآيات والسيقات .

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقِي ﴿١﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٣﴾ وَالنَّكَبِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴿٤﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ النَّكَاسُ ﴿٥﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٦﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَكَّى ﴿٧﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى آخِرِهِ يَمْتَطِعٌ ﴿٨﴾ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿٩﴾ ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴿١٠﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١١﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنَى يُتَمَّى ﴿١٢﴾ ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿١٣﴾ لَجَعَلَهُ مِنَ الرَّجَمِينَ الذِّكْرَ وَالْأُنثَى ﴿١٤﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ ﴿١٥﴾

(١) البخاري (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٨) ، ومسلم (٢٩٩/١٨٢) .

(٢) البخاري (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ومسلم (٢١١/٦٣٣) .

(٣) البخاري (٧٤٤٤) ومسلم (٢٩٦/١٨٠) .

(٤) مسلم (٢٩٧/١٨١) .

(٥) مسلم (٣١٦/١٩١) .

عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴿

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، إن جعلنا ﴿ كَلَّا ﴾ رادعة فمعناها : لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانا . وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر ، أى : حقا بلغت التراقي ، أى : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقبك ، والتراقي : جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والمعاتق ، كقوله : ﴿ فَلَوْلَا (١) إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، والتراقي : جمع ترقوة ، وهى قروية من الحلقوم . ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ ؟ قال ابن عباس : أى من راق يرمى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طيبب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَلْقَتِ السَّاقُ السَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة . وكذا قال : آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فالتفتى الشدة بالشدة إلا من رحم الله . وقال عكرمة : ﴿ وَأَلْقَتِ السَّاقُ السَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء بلاء . وقال الحسن البصرى : هما ساقك إذا التفتا . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان عليهما جوالا . وكذا قال السدى ، عن أبى مالك . وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن . وقوله : ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبادى إلى الأرض ، فأنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَقْفَاهُ فَرُوقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مُرَلَاهُمْ الْحَقِّ آلَآءُ الْحَكْمِ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الانعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذِبٌ وَتَوَكَّلَىٰ ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقلبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذِبٌ وَتَوَكَّلَىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أى : جذلان أشرا بطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَخُورَ ﴾ أى : يرجع ، ﴿ بَلَىٰ إِنْ رُبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٣ - ١٥] . وقال الضحاك : عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ : أى : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر . قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَيْكَ لَكَ فَارُوقٌ . ثُمَّ أَوَلَيْكَ لَكَ فَارُوقٌ ﴾ : وهذا تهديد ووعد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر فى مشيه ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئتك ، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] ، وكقوله : ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُعْجَمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦] ، وكقوله : ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠] إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿ أَهْبَسُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ قال السدى : يعنى : لا يبعث . وقال مجاهد ، والشافعى ،

(١) فى المخطوطة : « كَلَّا » وهو خطأ واضح .

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى . والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكروه من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال مستدلًا على الإعادة بالبداة فقال : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّ يَمْتَنِي ﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يعنى يراق من الاصلاب فى الارحام . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أى : فصار علقه ، ثم مضغه ، ثم شكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقًا آخر سويًا سليم الاعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿ فَجَعَلْ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ . ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداية ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . والأول أشهر ، والله أعلم . عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ ، قال : سبحانك ؛ فبلى .